القانون ميت والقاضي حي

قصة أناتول فرانس

ترجمة : أحمد شكري طوبار صقال

قال جان مارتو

وبعد بضعة أيام كنت راقدا في غابة حش ، ولم آكل ذلت طعاما منذ ست وثلاثين ساعة .

فاجأه السيد جروان يسرح رجاج نظارته ، وكانت عيناه تفيضان رقة على ما في نظرتهما من حدة ، ثم ألقى على جان مارتو نظرة متفحصة ، وقال يؤنبه :

ـ ماذا ؟ تبقى أربعا وعشرين ساعة لا تأكل ، مرة أخرى ؟

فأجابه جان مارتو :

ـ نعم ، في تلك المرة أيضا كنت لم أذق الأكل منذ أربع وعشرين ساعة ـ ولكني احتطت ـ يجب أن لا يبقى الانسان بغير طعام ـ انه أمر لا يليق يجب أن يعد الجوع ـ كالشرود ، جريمة ولكن الواقع أن كلا من الجريمتين تنطبق عليهما المادة ٢٦٩ التي تقضي بالحبس من ثلاثة أشهر الى ستة على من لا تعرف وسائل معيشتهم ـ وعرف القانون الشرود بأنه حالة المشردين الذين ليس لهم مأوى معين وليس لهم سبيل معروف للعيش والذين لا يزاولون حرفة أو صناعة . هؤلاء هم أعدى المجرمين .

فقال السيد بروجريه :

ـ من العجيب أن تكون حالة الشرود التي يعاقب عليها القانون بالحبس ستة أشهر ، ثم بالمراقبة عشر سنين هي الحالة نفسها التي صير اليها القديس الطيب فرانسو رفقاءه في ساحة ماري ديرافج فاليوم لو حاءت نفسها القديسة كلير والقديس فرانسوا ديسيز والقديس انطوان دبادوا ليعظوا الناس في باريس لخاطروا بأنفسهم ولعرضوا للالتقاء بهم في غرفة السجن وحجزهم في ادارة الضبط ـ على أني لست أقصد بذلك أن أشي الى الشرطة بطائفة الرهبان الجوالة الشحاذين الذين يتكاثرون بين ظهرانينا الآن ويثيرون الاضطرابات ، فان سبل عيشهم معروفة وهم يزاولون كل المهن .

فقال جان مارتو :

ـ هؤلاء محترمون لأنهم أغنياء ، والسعادة حق لا تحرمه غير الفقراء ـ فلو قد رئيت تحت تلك الشجرة ،

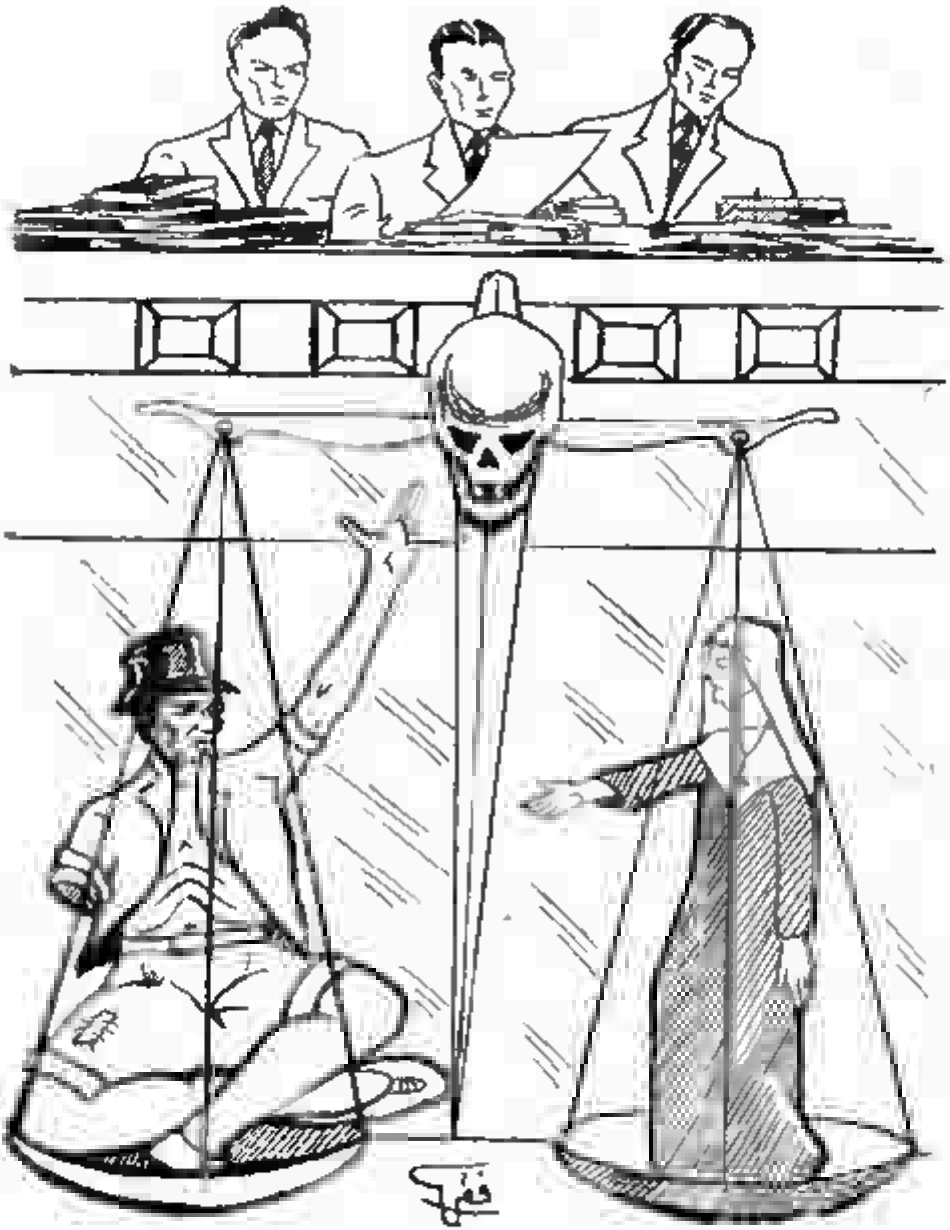

لأنصب في عباهب السجن ، ولكان ذلك عدلا . فأنا أعد من أعداء الملكية لأني لا أملك شيئا ، والعدل يقضي بحماية الملكية من أعدائها . ان أعظم واجب على القاضي هو أن يؤمن كل انسان على ماينبغي أن يحفظ على العين ثروته ، وعلى الفقير فاقته » .

فقال السيد برجريه :

ـ لقد أنعمت النظر في فلسفة القانون ، فأدركت أن كيان العدالة الاجتماعية يقوم على مبدأين ثابتين : ان السرقة محرمة ، وان ما تأتي به السرقة مقدس . هاتان هما القاعدتان اللتان يصان بهما أمن الافراد ويحفظ النظام في الدولة . فلئن أنكرنا واحدا من هذين المبدأين الخالدين ، لقد تهدد شمل المجتمع وانحلت عراه . أيهما قاما منذ تنفس بحر الزمن ، عاد سيد القبيلة وكان ردؤه جلد دب وسلاحه فأسا من الصوان وسيفا من البرنز ، فدخل هو ورفقاؤه المكان المستور بسياج من الصخر ، حيث أوى أطفال القبيلة ورمز النساء وقطعان الوعول . لقد أحضروا معهم شيخ القبيلة المجاورة وكواعبها وأحجارا سقطت من السماء نبيلة لديهم لأنهم كانوا يطبعون منها السيوف الصلبة . ارتقى الزعيم ربوة وسقط الحطيرة وقال هؤلاء العبيد وهذا الحديد قد غصبتهم من قوم ضعاف أذلاء ، فهم لي وحدي . أيكم يمد اليهم يدا أصرعه بفأسي فيلقى حتفه » هكذا نشأت حرفة القانون ان روحه قديمة بالغة القدم ووحشية ولما كانت العدالة اقرارا للمظالم حينما كانت أمنا وسلاما على كل انسان .

قد يكون القاضي خير النفس ، اذ ليس كل الناس أشرارا ، غير ان القانون لا يمكن ان يكون كذلك ، لانه نشأ قبل كل فكرة عن الخير ، ولان التعديلات التي أدخلت اليه على مر العصور لم تغير من اصل طبيعته شيئا . نعم لقد أكسبه الفقهاء الشارعون عمقا ولكنهم تركوه وحشيا . بطشه هو الذي يجعله محترما ويكسبه ماله من جلال . والناس دائما عبادة الارباب الشريرة . مالا يكون قاسيا ، عندهم ، غير جدير بالاجلال ، والمحكوم عليهم يؤمنون بعدالة القانون ، لا يدهشون في الاخلاق مدحنا غير مدحت قضاتهم وكمثل قضاتهم يرون أن العمل الذي يعاقب المرء عليه ، عمل يستحق العقاب وكثيرا ما أثر في نفسي أن شهدت ، في محاكم الشرطة ومحاكم الجنايات ، القضاة والقضاة يتفقون اتفاقا تاما في فكرتهم عن الخير والشر ، انهم على سواء في ميولهم وتحاملهم ، وناموس الاخلاق عندهم واحد .

قال جان مارتو

لايمكن غير ذلك ، ان المسكين الذي يسرق من دكان قطعة لحم او روحا من الأحدية لجدته ، وهو يفعل ذلك لا يتعمق ولا يتأمل بفكر حر في اصل القانون واساس العدالة . اما أمثالنا ، الذين لا يهولهم أن يروا في أصل القوانين اقرارا للعنف والظلم ، فمأجورون عن سرقة مليم

فقال السيد جوبان :

ومع كل ذلك هناك قوانين عادلة

فالتفت جان مارتو الى السيد برجريه وسأله :

ـ أتعلن ذلك ؟

ـ لقد أصاب السيد جوبان ـ هناك قوانين عادلة ، غير أن القانون مشروع لحماية المجتمع ، فلا يمكن أن يكون في روحه اعدل من ذلك المجتمع ، ومهما كان المجتمع قائما عليه ، فالقانون للدفاع عن هذا الظلم وصيانته ، واجدر القوانين بالاحترام اشدها ظلما ثم لاحظ أيضا ان معظم القوانين عتيق، ومن أجل ذلك هي لا تمثل تمثيلا صادقا ظلم وقتنا الحاضر ، بل ظلم الزمن الماضي وهو ظلم اقسى وافظع ، والقوانين بقية من بقايا العصور المظلمة تسربت الى عصر أكثر منها ضياء .

فقال السيد جوبان :

ـ ولكنها تعدل .

فأجابه السيد برجريه :

ـ نعم ، انها تعدل . تعدل حينما لا يجد الشيوخ والنواب عندنا آخر يعملونه ، الا ان ضميرها باق ، وهو مرير . انني في الحقيقة لا اعدو كثيرا بالقوانين الفاسدة اذا كانت في أيدي قضاة فاضلين . يقولون ان القانون لا يلين ، ولكني لا اعتقد صحة هذا القول ، فليس هناك نص لا يحتمل التأويل . القانون ميت ، والقاضي حي وفي هذا كان اختياره ولكن الذي يدعو الى الأسف ان القاضي قلما يستمسك بهذا الاختيار . العادة انه يوطن نفسه على أن يكون أبرد طبعا واقل احساسا وأشد مونا من نص القانون الذي يطبقه فلا هو انسان ، ولا هو ممن يعرفون الرحمة ، قد أخمدت فيه روح طائفته عواطفه الانسانية .

انني انجذب الآن الى ذوي النزاهة من القضاة وحدهم .

فقال السيد جوبان :

ـ وهم الكثرة .

فأجابه السيد برجريه :

ـ هم الكثرة لو عدمنا النزاهة الجارية والاخلاق العامة ، ولكن هل تكفي النزاهة أن تكون عدة الانسان الذي يجب أن يتولى سلطة العقاب الهائلة دون زلل أو سوء تصريف ؟ يجب أن يجمع القاضي الصالح بين طيبة خالصة وعقل فيلسوف . وهذا مطلب صعب ممن يسعى الى تأمين مستقبله ويريد أن يرقى في سلك القضاء ، دع عنك ما يستتبره من بعض رفقائه له وسخط الناس عليه اذا اظهر من الاخلاق ما هو أعلى من المعروف عند معاصريه ، فانما نسفه من الاخلاق ما ليس من أخلاقنا . وكل الذين جاءوا الناس بشيء من خير جديد ، لاقاهم بالرزاية جماعة المخلصين ، وهذا ما وقع للرئيس مانيو .

هذه احكامه مجموعة في مجلد صغير مع تعليقات حرى لبريه ، حينما صدرت تلك الاحكام أثارت سخط القضاة الصارمين وأفاضل الشارحين . انها تنم عن أسمى فكر وأدق نفس ، فهي معممة رافة ، وفيها مروءة ، وفيها فضيلة . أما في دوائر القضاء فقد عدوا الرئيس مانيو مجردا من العقل القانوني ، واتهمه أصدقاء السيد مليو بأنه لا يحترم الملكية حق الاحترام والحقيقة أن الاسباب التي بنى عليها الرئيس مانيو احكامه كانت فريدة في بابها ، لأنك تطالع في كل سطر

من الآراء ما هو وليد فكر حر ، ومن العواطف ما لا يصـــــدر الا عن قلب كريم .

وتناول السيد برجريه من فوق مكتبه مجلدا صغير الحجم قاني اللون ، ثم قلب صفحاته ، واخذ يقرأ :

« البراءة والدماثة فضيلتان ايسر ان يتخلق بهما انسان لا يعوزه شيء من أن يتخلق بهما انسان يفتقر الى كل شيء » .

«لاعقاب على ما لايمكن تجنبه» .

« لكي يكون الحكم على جريمة الفقر عادلا ، يجب على القـــاضي أن ينسى وقتئذ ، ما هو فيه من رغد العيش ، حتى يستطيع أن يضع نفسه ، ما امكن ، في المأزق الضنك الذي وقع فيه مخلوق قد تنكر له كل انسان » .

« يجب على القاضي حين يفسر القانون ألا يقصر نظره على القضية الخاصـــة المعروضة عليه — بل عليـــه أن يبطر ايضا — من ناحية أعم . فيما قد ينجم من حكمه خيرا كان أو شرا » .

«العامل وحده هـــو الذي ينجح ، وهو وحده الذي يجـــازف بصحته أو بحيـــاته لفـــائدة صاحب العمل . أما صاحب العمل فلا يجـــازف الا برأس ماله » .

وحينذاك قال السيد برجريه وهو يطوي الكتاب :

ان القضاء كاد يكون عفوا لخاطر . انه لكلام طريف ، وانه لصدى ترددد نفس عالية .